﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

بعد أن بينّ الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام .. أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى .. وأراد أن يبين لنا موقفهم من رسول جاءهم منهم .. ولقد جاء لبنى إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفاتهم للمنهج كانت كثيرة .. ولكن الآيةَ الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام .. لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية .. ولكن لابد أن نعرف أنه قبل مجىء عيسى .. وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون .. منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم .. فكأنه فى كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين .. ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية .. فيرسل اللهُ رسولا يعدل ميزانَ حركة حياتهم .. ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم وفسقهم .. فيبعث اللهُ رسولا جديدًا .. ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع ويطبق شرع الله .. ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال اللهُ سبحانه وتعالى : « ولقد أتينا موسى الكتابَ » والقائلُ هو اللهُ جل جلاله .. والكتابُ هو التوراةُ : « وقفينا من بعده بالرسلِ » .. واللهُ تباركَ وتعالى بين لنا موقفَ بنى إسرائيل من موسى .. وموقفَهُم من رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين .. ولكنه لم يبين لنا موقفَهُم من الرسلِ الذين جاءوا بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحقُّ سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. إلى أنه لم يترك الأمر لبنى إسرائيل بعد موسى .. أن يعملوا بالكتاب الذى أرسل معه فقط .. ولكنه أتبع ذلك بالرسل .. حين تسمع « قفينا » .. أى اتبعنا بعضهم بعضا .. كل يخلف الذى سبقه. « وقفينا »

مشتقة من قفا .. وقفا الشيء خلفه .. وتقول قفوت فلاناً أى سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن نلتفت إلى أن رسالةَ موسى لم تقف عند موسى وكتابه .. ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياءً ليذكروا وينبهوا .. ولقد قلنا إن كثرةَ الأنبياءِ لبنى إسرائيلَ ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم .. إنهم يتفاخرون أنهم أكثرُ الأمم أنبياءً .. ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا .. فكثرة الأنبياء والرسل دلالة على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشريةِ من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء .. وكلما كثُرَ الرسلُ والأنبياءُ دل ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهابِ الرسولِ عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد .. تماما كما يكون المريض فى حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ .. وليقطع اللهُ سبحانه وتعالى عليهم الحجةَ يومَ القيامةِ .. لم يترك لهم فترةً من غفلةٍ .. بل كانت الرسلُ تأتيهم واحدا بعد الآخر على فتراتٍ قريبةٍ .

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى .. نرى موكبًا طويلًا جاء بعد موسى .. حتى إنه لم تمر فترةٌ ليس فيها نبى أو رسول .. وحتى نفرقَ بين النبى والرسولِ .. نقول النبىُ مرسلٌ والرسولُ مرسلٌ .. كلاهما مرسلٌ من اللهِ .. ولكن النبىَ لا يأتى بتشريعٍ جديدٍ .. وإنما هو مرسلٌ على منهجِ الرسولِ الذى سَبَقَهُ .. وإقرأ قولَهُ سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى مرسل أيضاً .. ولكنه أسوةٌ سلوكيةٌ لتطبيقِ منهجِ الرسولِ الذى سبقه .

وهل اللهُ سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟ إقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن هناك رسلٌ وأنبياء أرسلوا إلى بنى إسرائيل لم نعرفهم . . لأن الله لم يقصص علينا نبأهم . . ولكن الآية الكريمة التى نحن بصددها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام . . باعتباره من أكثر الرسل أتباعا . . والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبينات التى تثبت صدقَ بلاغه عن اللهِ . . ولذلك قال جل جلاله : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُس » . . وعيسى ابنُ مريمَ عليه السلام جاء ليرد على المادية التى سيطرت على بنى إسرائيل . . وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشىء المادى المحسوس . . فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب . . حتى إنهم قالوا لموسى : « أرنا اللَّهَ جهرةً » . . وحين جاءهم المن والسلوى رزقاً من الله . . خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزقٌ غيبىٌّ فطلبوا نبات الأرض . . لذلك كان لابد أن يأتى رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية . . مولده أمر غيبى ، وموته أمر غيبى ورفعه أمر غيبى ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتى عن غير طريق التكاثر المادىّ . . أى الذى يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوىّ . . واللهُ سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بنى إسرائيل ان الأسباب المادية تحكمه . . وإنما هو الذى يحكم السبب . هو الذى يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان . . بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون . . وفى قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب وهى الفاعلة . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فكأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب فى الإنجاب . . ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب . . فيأتى رجل وامرأة ويتزوجان ولكنهما لا ينجبان . . فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئا إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُس » . . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » . . ألم يكن باقى الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع فى كل أمر له . . ميلاداً ومعجزةً وموتاً . . والروحُ القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا . . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للهجوم . . ولذلك لابد أن يكون الوحى فى صحبته لا يفارقه . . ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه . . وعندما يتحدث القرآن انه رفع إلى السماء . . اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حيا ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقول : لو أننا عرفنا أنه رُفع حيا أو مات فما الذى يتغير فى منهجنا ؟ لاشىء . . وعندما يقال إنه شىء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . . نقول إن عيسى ابنَ مريمَ لم يتبرأ من الوفاة . . إنه سيُتَوَفَّى كما يُتَوَفَّى سائر البشر . . ولكن هل كان ميلاده طبيعياً ؟ الاجابة لا . . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . . فإذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب فى ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود . . فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله فى آخر الزمان ؟ والفرق بين محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً فى السماء ، بينما عيسى بقى . . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن إبن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم إبن مريم صلى الله عليه وسلم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[1] .

(١) رواه البخارى فى المظالم ومسلم فى الإيمان وأبو داود فى الملاحم والترمذى فى الفتن وإبن ماجه فى الفتن ورواه أحمد فى المسند .

وهذا الحديث موجود فى صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلا لبنى إسرائيل .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ » .. البينات هى المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهى الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأملنا فى هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبها إلى معجزته كرسول .. ومعروف انه كرسول يؤيده اللهُ بمعجزات تخرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفاً للرسول .. وبين معجزة لابد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. وإقرأ الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْىِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى فى الآية الكريمة أنه بينها كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون فى بيوتهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموتى فى كل مرة بإذن الله .. وليس كشفا ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائما معه .. وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » .. وأيدناه مشتقة من القوة ومعناها قويناه

بروح القدس فى كل أمر من الأمور . . وكلمة روح تأتى على معنيين . . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . . وهناك روح أخرى هى روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . . ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والقرآن روح . . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . . إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . . والقدس هذه الكلمة تأتى مرة بضم القاف وتسكين الدال . . ومرة بضم القاف وضم الدال . . وكلا اللفظين صحيح وهى تفيد الطهر والتنزه عن كل ما يعيب ويشين . . والقدس يعنى المطهر عن كل شائبة .

قوله تبارك وتعالى : أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » قوله تعالى : « أفكلما » . . هناك عطف وهناك استفهام ، وهى تعنى أكفرتم ، وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . . أى إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . . وهم يريدون أن يشرعوا لرسلهم . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذّبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » . . هناك هَوَى بالفتحة على الواو وهَوِىَ بالكسرة على الواو . . هَوَى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلى أسفل . . وهَوِىَ بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى . . اللفظان ملتقيان . . الأول معناه الهبوط ، والثانى حب الشهوة والهوى يؤدى إلى الهبوط . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها إرتفعوا من موقعكم الهابط . . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعطينا هذا المعنى ، وكيف ان الدين يعصمنا من أن نهوى ونسقط فى جهنم يقول :

(إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم موحمون فيه)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ، وابن ماجه فى الزهد . ورواه أحمد .

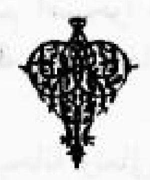
ومعنى آخذ بحجزكم أى آخذ بكم .. وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله بمنهج الله يحاول أن ينقذنا منها .. ولكن رب نفس عشقت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أى أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتم أنكم كبارٌ ولستم كبارًا .. ولكن هل المشرع مساو لك حتى تتكبر على منهجه ؟ طبعا لا .. قوله تعالى : « ففريقا كذبتم » .. والكذب كلام يخالف الواقع .. أى أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع . لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم .. وقوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. التكذيب مسألة منكرة .. ولكن القتل أمر بشع .. وحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام خصمه .. وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم .. ولو انه رجلٌ مكتمل الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. مثل نبى الله يحيى ونبى الله زكريا .. وهناك قصص وروايات تناولت قصة سالومى .. وهى قصة راقصة جميلة أرادت إغراء يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها .. فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه .. وفعلا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .



﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم .. فماذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف .. وهناك غلْف بسكون اللام ، وغلُف بضم اللام .. مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكأنهم يقولون إننا لسنا فى حاجة إلى كلام الرسل .. أو « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوع عليها .. أى ان الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهدى .. ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا .. ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » : لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح .. فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل .. ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله .. فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم .. ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب .. ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى .. فصدوه بالكفر أولا .. ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله .. لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر ـ علها تنجيهم من العذاب يوم القيامة ـ يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هى حجة الكافرين الذين يظنون انها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . . إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . ومادام اللهُ قد شاء أن يضلنى فما ذنبى أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من الأمور المطلقة فيجب أن نلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

ويقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . . الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟! إنسان واجه الله بالكفر . . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله . . ورفض أن يتأمل فى كون الله . . ورفض أن يتأمل فى خلقه هو نفسه ومن الذى خلقه . . ورفض أن يتأمل فى خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . . ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . . لأنه فعل ذلك أولا . . ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له فى الكون وفى نفسه آيات تجعله يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذى بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله .. يذكرونه بقدرة الله وقوة الله فلا يلتفت .. يختم الله على قلبه .. كذلك الإنسان الفاسق الذى لا يترك منكرا إلا فعله .. ولا إثما إلا ارتكبه .. ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهرا أو قسْرًا ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعا لا .. ذلك يضيع الاختيار البشرى فى أن يطيع الإنسان أو يعصى .

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه .. فى أجسادنا التى تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. والمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله .. لا نستطيع أن نأمره ليفعل فيفعل .. وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل .. وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث فى الكون .. فهذا يمرض ، وهذا تدهمه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر .. وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التى تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها .. بقى ذلك الذى يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله فى افعل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه .

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب فى الآخرة عدلا .. فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل .. وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة .. إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين .. فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق .. ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختاروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً بين العلماء ولكنها فى الحقيقة لا تستحق هذا

الجدل .. فالله سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » .. واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .. ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا .. إبنك الصغير يطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته .. والأكبر أشد فأشد .. فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدارٌ لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشرى .

قوله تعالى : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » .. أى طردهم الله بسبب كفرهم .. والله تبارك وتعالى لا يتودد للناس لكى يؤمنوا .. ولا يريد للرسل أن يتعبوا أنفسهم فى حمل الناس على الإيمان .. إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى انهم لا يستطيعون الا يؤمنوا إذا أردناهم مؤمنين قهرا .. ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا .. وإيمان العبد هو الذى ينتفع به .. فالله لا ينتفع بإيمان البشر .. وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله .. قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله .. ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة .. نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله ..

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هى : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك .. لذلك يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّركِ من عَمِلَ عملا أشْرَكَ فيه معى غيرى تركتُهُ وشِركَه)[1] .

---

(١) رواه مسلم .

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية . . هى شهادة الذات للذات . . وذلك فى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

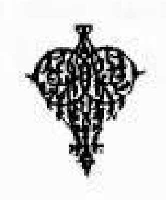
(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله . . شهد لنفسه بالألوهية . . ولنقرأ الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات. والملائكة شهدوا بالمشاهدة . . وأولو العلم بالدليل . . والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلاً ما يؤمنون » . . عندما تقول قليلا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة الإحتمال ، لأنه من الممكن أن يتوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن . . فيبقى الله الباب مفتوحا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم فى شبابهم قد يأتون فى آخر عمرهم ويتوبون . . فى ظاهر الأمر انهم أسرفوا على أنفسهم . . ولكنهم عندما تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم . . لذلك يقول الله جل جلاله : « فقليلاً ما يؤمنون » أى أن الأغلبية تظل على كفرها . . والقلة هى التى تعود إلى الإيمان .



﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى . . أن بنى إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلف لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان . . أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به . . ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذى معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف . . ولكنهم كانوا قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذى ذكر عندهم فى التوراة . . وكانوا يقولون لأهل المدينة . . أهَل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم .

ولقد كان اليهود يعيشون فى المدينة . . وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود فى كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبى الذى يهددنا به اليهود وأسرعوا يبايعونه . . فكأن اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس فى الطائف . . وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة فى موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدونه ويضطهدونه . . وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ،

وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته . . دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك . . ثم دعوه ليعيش بينهم فى دار الإيمان . . كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا» . . أى أنهم قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أظل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه . . فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » . . أى كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد . . لأن الرسول لم يأت . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة فى قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بنى إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذى انتظروه وبشروا به . . ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجىء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم فى التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله . . واللعنة كما قلنا هى الطرد من رحمة الله .



﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته .. بيّن لنا أنهم : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكلمة إشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التى نريدها .. ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شرى واشترى .. شَرَى بمعنى باع .. وإقرأ قوله عز وجل :

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة انهم باعوه بثمن قليل .. واشترى يعنى ابتاع .. ولكن اشترى قد تأتى بمعنى شرى .. لأنك فى بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال .. وتذهب وتشترى السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر .. فتذهب إلى الصيدلية وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن فى هذه الحالة مشترى .. إذن فمرة يكون البيع مشترى ومرة يكون مبيعًا ..

والحق تبارك وتعالى يقول : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو كانوا حقيقة يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أتموا صفقة خاسرة .. الصفقة الرابحة

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . . ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب فى الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة . . فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم . . يخاف من الظلم ويبتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن فى الدنيا مقاييس فى الثواب والعقاب . . وحتى لا ينتشر فى الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة . . وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا فى الدنيا . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى فى قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا . . فيأتى للمرابى الذى يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه . . ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حلمك واستبطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين فى الدنيا . . جعلها الله عبرة لمن لايعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده فى آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين . . وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمعه من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء . . وفى آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء . . وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها . . كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس . . ولذلك فهى تحدث على رؤوس الأشهاد . . يعرفها عدد كبير من الناس . . إما لأنها تنشر فى الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحى فيتناقلونها . . المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح . . ينتهى بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . . أليس هذا خزيا ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل اللهُ بغيا » . . البغى تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حدا مَنْ تجاوزه بَغَى . . والحدود التى وضعها الله سبحانه هى أحكام . . ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهى. ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيهم ؟ . . بغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتى إليه الرسالة . . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم . . واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض . . وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول خاتم قالوا إنه منا . . الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار . . ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبى القادم وينصرونه . . ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم . . حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه . . لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلا لها . . وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة فى أمة غيرهم . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فاطر)

لقد اختبرهم الله فى رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا فى الآيات السابقة . . كذبوا فريقا من الأنبياء . ومن لم يكذبوه قتلوه . . لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها فى أمة غيرهم . . لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض . . ولذلك بغوا .

وقوله تعالى : « بغيًا أن ينزل اللهُ من فضله على من يشاءُ من عباده » . . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل . . فضل من الله يختص به من يشاء . . والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب . . فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها . . ونعرف أنه لا ذاتية فى هذا الكون . . وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . . فإن بطل العالم فى لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية فى هذه اللعبة . . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه . . ولأنه قد يصيبه أى عائق يجعله لا يصلح للبطولة . . وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم . . لأنها ليست ذاتية فيه ومَنْ وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاءَ . . ولذلك لابد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشرى متغير لا يدوم لأحد . . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا فى عالم أغيار . . ولابد لكل من علا أن ينزل . . فالكمال لله وحده . . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله . . حسدوا نزول القرآن على العربِ . . والحق سبحانه يقول : « فباءوا بغضبٍ على غضب وللكافرين عذابٌ مهينٌ » . . والله جل جلاله يخبرنا أنه غضبٌ عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم ينفذوا ما جاء فى التوراة فغضب الله عليهم . . والغضب الثانى حين جاءهم رسول مذكور عندهم فى التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به . . وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم . . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وقوله تعالى : « وللكافرين عذابٌ مهين » . . العذاب فى القرآن الكريم وُصِفَ بأنه أليم . . ووُصِفَ بأنه عظيم ووُصِفَ بأنه مهين . . أليم أى شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . . ولكن لنفرض أن الذى يعذب يتجلد . . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس . . يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل . . فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر فى الدنيا . . ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وتزعموا قومهم . . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . . ويكون هذا أكثر إيلاما للنفس من الألم . . تماما كما تأتى لرجل هو أقوى مَنْ فى المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض . . تكون فى هذه الحالة قد أهنته أمام

الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

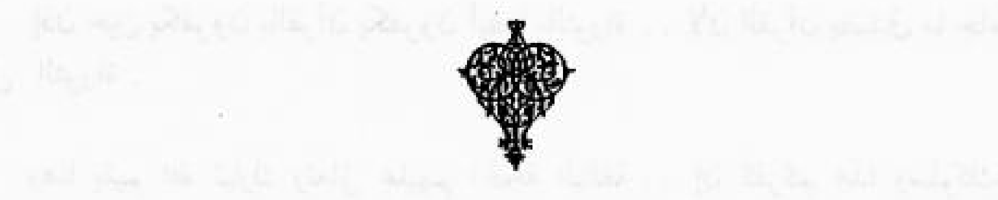
(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

(سورة الدخان)

ذلك هو العذاب المهين .



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك فى التوراة . . فيقول جل جلاله : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ » أى إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك « وقالوا نؤمن بما أنزل علينا » أى نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أى بما نزل بعده .

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ماعندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم .

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء فى التوراة .

وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوكك ضد كل نبى جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . . فقولوا لنا لِمَ قتلتم أنبياء الله ؟ . . ولذلك يقول الحق : « فَلِمَ تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » . . هل هناك فى كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » . . إذا كان هذا صحيحا وانكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا مما أنزل إليكم وهى التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعا لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون فى قولهم نؤمن بما أنزل

علينا . . لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء . . فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التى تخرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة فى المناقشة . . وهنا لابد أن نتنبه الى قوله تعالى : « فلِمَ تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » . . قوله تعالى : « من قبلُ » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفى الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود فى أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام . . والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بنى إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبذلك قطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن ذلك كان عهدا وانتهى . . وأنهم لو تآمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تآمرهم ولن يكفوا عن بغيهم فى قتل الرسل والأنبياء . . فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة . . مرة وهو فى حيهم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر . . ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقوله تعالى « من قبل » معناها . . إن كنتم تفكرون فى التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم فى أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس فى نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم فى قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا فى محاولاتهم ، وفى الوقت نفسه كانت الآية تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تآمروا فلن يمكنهم الله من شىء . . وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » . . أى بما أنزل إليكم .

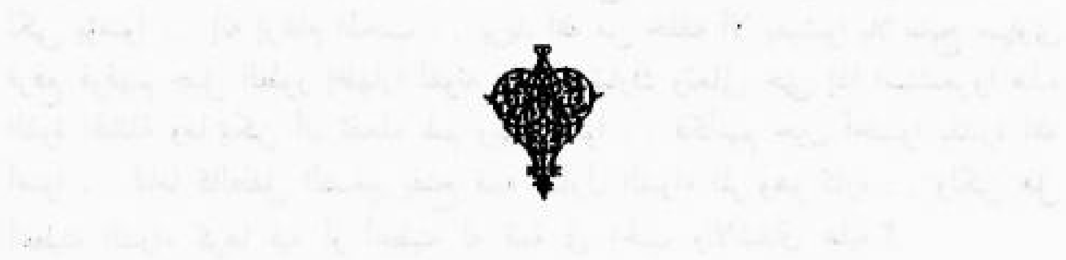
﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط .. أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم فى طبيعتهم الكفر والإلحاد .. فقال سبحانه : « ولقد جاءكم موسى بالبيناتِ » .. أى أن موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله .. فلقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون .. أى أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها .. ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله .. بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه .. فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم .. لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهًا .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حجتهم فى أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم .. ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم .. فجاء بحكاية قتل الأنبياء .. ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون .. أما الحجة الثانية فهى إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم .. فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التى تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذى شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون .. والقتيل الذى أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التى ذبحتموها .. آيات كثيرة ولكن بمجرد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل .

إذن فقولكم نؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح .. فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم .. وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجلَ من بعده وأنتم ظالمون » . . واتخاذ العجل فى ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبح لتأكل لحمه . . ولكن المعصية هى اتخاذ العجل معبودا . . وقوله تعالى : « إتخذتم العجل » . . أى أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم . . وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنبهم فى حق الله . . كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت . . وكلما أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل . . وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » . . أى ظالمون فى إيمانكم . . ظالمون فى حق الله بكفركم به .



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

بعد أن ذَكَّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل .. وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر .. أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يذَكِّرهُم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم .. ولم يكن الجبل سيقع عليهم .. لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان .. ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا .. مثلهم كالطفل الذى وصف له الطبيب دواء مرا ليشفى .ولذلك فإن رَفْعَ الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج .. لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكى يؤمنوا .. إنه إرغام المحب .. يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سماوى فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا .. فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا .. تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره .. ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قمة فى الحب والاشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح .. نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها .. لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم ان يستمروا على الإيمان .. تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض .. فيقول وماذا أفعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » .. هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ . طبعا هو ميثاق الله .. ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفا فى العقد .. ومادام قد أصبحوا طرفا أصبح ميثاقهم .. ولابد أن نؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال انهم أجبروا على ذلك . . هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور . . فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا . . فلو أنهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم . . فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج . . ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى . . حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . . وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر علهم يعودون إلى إيمانهم . . وهذا يأتى من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين . .

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله . . وليس فى هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية . . ولكنها آية تدفع إلى الإيمان . . وقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة . . والأخذ بقوة يدل على عشق الآخذ للمأخوذ . . وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدى مطلوباته بقوة . . فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » . . القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان . . هناك قول وفعل وعمل . . القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ . . والعمل أن يطابق القول الفعل . . هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه . . ولكن (عصينا) على أى شىء معطوفة ؟ . . إنها ليست معطوفة على « سمعنا » . . ولكنها معطوفة على (قالوا) . . قالوا سمعنا فى القول وفى الفعل عصينا . . وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا فى الفعل . . فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا . . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين . . لا . . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا. والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أى مجرد سماع . . ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . . فالحب أمر معنوى وليس أمرًا ماديًا لأنه غير محسوس . . وكان التعبير

يقتضى أن يقال وأشربوا حب العجل .. ولكن الذى يتكلم هو الله .. يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أشربوا العجل ذاته أى دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل فى هذا الحيز الضيق وهو القلب .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى الشيوع فى كل شيء بكلمة أُشْرِبُوا .. لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل فى كل الجسم .. والصورة تعرب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء فى الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقولُ الحق جل جلاله : « وأُشربوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم » .. كأن الكفر هو الذى أسقاهم العجل .. هم كفروا أولا .. وبكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها .. وقوله تعالى : « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .. هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده .. قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ .. وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم .. مثل قوله تعالى :

﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ .. طبعا لا .. ولكنه أسلوب تهكم واستنكار .. والحق أن إيمانهم لا يأمرهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

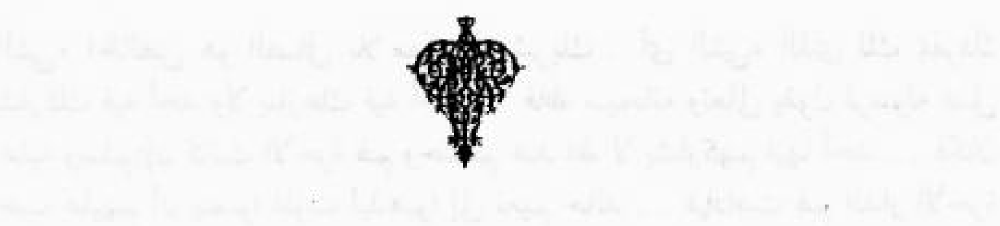
﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ
مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ
هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو مايأمرهم به إيمانهم .. أن يؤمنوا بالنبى الأمى محمد عليه الصلاة والسلام .. والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله .. ولذلك عندما يحاولون خداع الله .. يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : « بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين .. ولكن لازال فى قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذى عبدوه .



﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود .. ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .. وهو سبحانه يريدنا أن نعرف ان هؤلاء اليهود .. لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا .. ويعرفون انهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا .. ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع .. فيقول : «قل إن كانت لكم الدارُ الآخرة» : «قل» موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى قل لهم يا محمد .. ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم : «الدار الآخرة عند الله خالصة».

الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك . أى الشيء الذى لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد .. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم:إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد .. فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد .. فمادامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم .. فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا .. ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة .. وليست هذه هى الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى .. وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

من الذى قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،